

الشيخ العلامة البيحاني والحاج هائل سعيد

مودة قديمة وصداقة حميمة

ناصر محمد الشيباني

عضو مجلس الشورى

نائب رئيس هيئة علماء اليمن

كانت عدن تغص بالعلماء مثل الشيخ/ علي محمد باحميش - قاضي عدن الشرعي والسيد/ مطهر بن مهدي الغرياني، والشيخ/ محمد عوض باوزير، والشيخ/ كامل عبدالله صلاح، والشيخ/ أحمد كريم بخش، والشيخ/ أحمد محمد العبادي، والسيد/ محمد عبدالهادي العجيل، والسيد/ علي المشهور، والسيد/ أحمد علوي الحداد، والسيد/ محمد عبدالله الهدار .. وغيرهم، وكانوا يفتشون المساجد، فيعقدون جلسات علمية متعددة، كلما سنحت سانحة وواتت فرصة، ويلتف حولهم طلاب العلم لقراءة صحيح البخاري وكتب التفسير والفقہ واللغة، وكان الحاج/ هائل سعيد - رحمه الله - من السابقين إلى هذه المجالس حبا للعلم وتقديرا للعلماء، وقد كان يحبهم ويحبونه، بيد أن لشيخنا البيحاني مكانة خاصة لديه، فقد كان يرى فيه القدوة والأسوة، ويعده الأب الروحي له، وكان يقول: " كنت أسافر من المعلا إلى عدن لسماع خطبة الجمعة التي يلقيها الشيخ - رحمه الله - في مسجد العسقلاني ". ويرى أنها الزاد الروحي للأسبوع كله، وقد نشأت بينهما صداقة لا نظير لها في دنيا الأصدقاء، ومودة لا شبيه لها في دنيا الناس، وكان الشيخ - رحمه الله - كلما حزبه أمر أو نزلت به ضائقة ذهب إلى الحاج هائل فيجد عنده صدرا رحبا وعاطفة جياشة، وكرما لا حدود له.. ولم يكن البيحاني ليجمع المال لنفسه.. ولكن لبناء مسجد أو معهد، أو لكفالة يتيم، أو رعاية طالب علم.. فقد كان مسجد الشيخ وبيته و معهده ملاذا لكل ملهوف، وكعبة لكل قاصد، وكان شعاره الذي لا يضارق لسانه " أنت لنفسك ما لم تعرف .. فإذا عرفت فأنت لغيرك، والمورد العذب كثير الزحام "، ولم يُسخر واجب الدعوة إلى الله في يوم ما

لإشباع حظوظه النفسية، وطموحاته الشخصية؛ لا في شبابه .. ولا في كهولته؛ بل عاش أبعد ما يكون عن استغلال الإسلام، أو استغلال نشاطاته الإسلامية، للوصول إلى مغنم سياسي أو تبوؤ مركز رئاسي، أو حظوة دنيوية.

وقد أدرك الشيخ البيهاني بفطرته السوية أن الحاج/ هائل سعيد ممن يلجأ إليهم في الملمات، وأنه من المعجبين بمزاياه النادرة، ويعلمه الواسع، وأفكاره العميقة .

وللحاج هائل - رحمه الله - ذكاء متوقد ونظرة ثاقبة وخبرة رائدة في معرفة الرجال، واحترام قدراتهم ومواهبهم؛ فلا غرؤ أن تكون للشيخ البيهاني هذه المكانة وتكلم النظرة لدى الحاج هائل وقد أدرك - رحمه الله - أن البيهاني واحد من أبرز رجالات اليمن، عرّفته مجامع عدن، والجزيرة .. عالماً محققاً جليلاً، واعتزت به محافلها ومنابرها .. خطيباً مؤثراً يأخذ بمجامع القلوب وتألفت به مساجدها ومراكزها الثقافية داعية ذا قلب متحرق إلى الإسلام الحق البعيد عن جهالة التقليد .. المحصن بالعلم والمعتز بالدراية والوعي .. ظهرت نفسه من عكر الأهواء والعصبيات؛ وهذا ما دعا الحاج هائل إلى إكباره، وملاً قلبه إعجاباً به وتقديراً له.

ولا عجب بعدئذ أن يكون الشيخان صديقين حميمين شعارهما الوفاء ورائدتهما الإخلاص .

ثم جاءت بعد ذلك سنون عجاف، وأيام كئيبة؛ فرقت بين الصديقين ووضعت أمامهما سدوداً سميقة من الغل الأزرق والحقد الأحمر، حالت دون لقائهما سنوات، فالحاج هائل - رحمه الله - غادر عدن إلى تعز بعد أن تعرّض لصنوف من الأذى، وأصبحت هجرته منها واجبة، فلم يعد هنالك مكان لصاحب علم أو مال، فالعلماء الذي هم ورثة الأنبياء، ملئت بهم السجون ونصبت لهم المشانق، ورجال الأعمال الذين هم سفراء الأمم، أممت أموالهم وقيدت حريتهم، ومن كتب له البقاء قبع وراء أربعة جدران في زوايا السجون، وكان شعار الناس في تلك الأيام الكوالح:

لا تَعْجَبِينَ مِنْ هَالِكٍ كَيْفَ هُوَ

بل فاعجبين من سائلٍ كيف نجا

ونجا الحاج هائل سعيد - رحمه الله - من شباك الماكرين، كما نجا البيحاني - رحمه الله - بعده من مصائد الحاقدين، فالأول عاد إلى تعز، والثاني ذهب إلى الحج، وبعد أداء مناسك الحج هاجر الشيخ إلى تعز إلى - اليمن الشمالي - كما كان يقال في تلك الأيام، وهذه مرحلة عصبية، يالضعف القلم حينما يُطلب منه وحده أن يسجل كلمة الحق، وأن يتحدث عن نقاشات الصدور، وأن ينقلب إلى عين قريحة .. تُبكي الحق وأهله .

وأحسَّ الشيخ المطارد والمضطهد في دينه وعقيدته ومريديه ومسجده ومعهدته ووزقه، أن مدينة تعز أعادت إليه اعتباره، ولم يجد نفسه غريباً فيها، فكأنها مسقط رأسه ومرتع صباه، ووجد في صديقه الحاج هائل نفس الأب والأخ والصديق، وكان يراه عيبة سره وموضع ثقته، وبالأخص تلك الفترة التي كانت من أقسى فترات عمره، فقد خرج من عدن خائفاً يترقب، ولم يرع التترحق أبوته، ولا حق علمه وأدبه، ولا حق أيامه النضرات التي قضاها بينهم، معلماً ومرشداً ومفتياً ومصالحاً اجتماعياً، فما أشبهه بموسى - عليه السلام - حين خرج من أرض مصر فزعاً، وما أشبهه الحاج هائل بالرجل الصالح شعيب حين آواه وأكرمه وآمنه، وقال له مقالة الرجل الصالح: ((اليوم نجوت من القوم الظالمين)).

وظل الحاج هائل - رحمه الله - ملازماً للشيخ مدة إقامته في تعز، يزوره في بيته ويصطحبه إلى المساجد والمدارس لإلقاء المحاضرات والدروس، وقد أخبرني - الحاج هائل - بأن قدوم البيحاني إلى تعز كان أعظم نعمة ساقها الله إلى أهل تعز، بل إلى اليمن كلها.

ومن باب الذكرى والتاريخ والاعتراف بالجميل والفضل لأهله فإن الحاج هائل سعيد أنعم - رحمه الله - لم يشاء أن يدع ذكره مطمورة أو منسية، فأنشأ في مدينة تعز مسجداً أسماه مسجد البيحاني .. يراه القادم إلى تعز أو الخارج منها .. عن طريق (بيرباشا)، وافتتحناه معاً في شهر رمضان عام ... وبعد وفاة الحاج/ هائل قام ولده الأكبر الأستاذ/

أحمد هائل .. فأنشأ مسجداً آخر في عدن ((خور مكسر)) أسماه أيضاً مسجداً الشيخ/ البيحاني . وانسحب الحال على كثير من علماء عدن .. فأنشأت جمعية هائل سعيد أنعم الخيرية مسجداً باسم الشيخ/ باحميش، ومسجداً باسم الشيخ/ مطهر الغرياني ومسجداً باسم الشيخ/ أحمد كريم بخش، فقد امتزج حب العلم والعلماء في دماء هذه الأسرة المباركة .. أسرة آل سعيد أنعم، ففيهم للدين حب، ولثقافة عشق، وللعلم والعلماء إجلال وإكرام، ويوم دعا الشيخ البيحاني لتأسيس وبناء معهد العلم في عدن في الخمسينيات، بادر الأثرياء من رجال الأعمال في اليمن بالمساهمة بسخاء وكان الحاج هائل يرحمه الله من السابقين إلى البذل والعطاء .. وتم بناء ذلك الصرح الشامخ، وتوافد إليه طلاب العلم ينهلون من معينه، وأصبح قلعة من قلاع الإسلام الصلبة، وكيف لا يكون كذلك والشيخ عميده والمشرف عليه، وقد قال رحمه الله يوم افتتاحه للمعهد:

قواعده على الإسلام قامت حذاء الفرقدين وفوق صيره
وبالأيدي الطويلة قام صرح وهل تبني الصروح يد قصيره

وما دار بخلد الشيخ أن هذا الصرح العلمي ستعصف به الرياح الهوج، وأن الأيدي الجاهلة الجاحدة ستعذب به .. فحولته إلى أطلال تنعب على أركانه البوم والغريان، بعد أن خنقت البلابل والعنادل .. من كان يدري أن المعهد سينكب بالتر والمغول .. حتى اللوحة التي كتب عليها تاريخ التأسيس والافتتاح والمؤسس، لم تسلم من العدوان، فقد حكموا عليها بالإعدام، فقد كانوا يحقرون من دونهم .. ويكرهون من فوقهم .. وفي الحديث: ((ليس منّا من لم يرحم صغيرنا .. ويوقر كبيرنا، ويعرف لعالمنا حقه)).

ومن داس كل مبدأ شريف ماذا تنتظر منه ؟؟ ! إذ البعد عن الدين يلد العجائب، وما درى هؤلاء أن في السويداء رجالاً وأن في الزوايا خبايا .. فبعد مرور ما يقارب نصف قرن من الزمان على تأسيس المعهد وبعد الخطوب التي نزلت به .. أتت جمعية هائل سعيد أنعم الخيرية ممثلة بالأستاذ / أحمد هائل سعيد الذي يحنو على العلم وأهله .. فأعاد بناء المعهد العلمي من جديد وأعاد له رونقه وشبابه، وجماله وشموخه

ومجده، وأعاد لمؤسسه الشيخ البيحاني اعتباره .. وأعطاه حقه وزيادة .. وذلك لعمرى هو المجد .. وتلك لعمرى هي العظمة وذلك هو المال الربح، فبخٍ بما عملوا وما يعملون، وهنيئاً هنيئاً للجمعية الخيرية لمؤسسة هائل سعيد أنعم ممثلة برجلها النابه والمفضال الأستاذ/ أحمد هائل سعيد .. وعميد الأسرة الحاج / علي محمد سعيد وآل سعيد أنعم جميعاً زادهم الله توفيقاً وتسديداً، وتقبل منهم صوالح الأعمال ورزقهم الحسنى وزيادة.

ومن فضائل الوحدة اليمنية ومحاسنها إعادة بناء هذا المعهد الباذخ والصرح الشامخ، ولولا الوحدة لظل قابعاً في منطقة صيرة في جزيرة معزولة شاهداً على حقد الحاقدين وجهالة الجاهلين، ولقد أذكر أنني بعد إعادة الوحدة اليمنية شاركتُ في اللقاء الحاشد الذي أقيم في صنعاء احتفاءً بيوم الوحدة اليمنية، الذي يُعدُّ غرّةً في جبين الدهر، ومفخرة كبرى من مفاخر أهل اليمن، وشاركتُ في اللقاء وفود التهنئة من كل المحافظات اليمنية، وبحضور القيادة السياسية وأعضاء الحكومة، وفي المقدمة رأس اليمن ورئيسها فخامة الأخ / علي عبد الله صالح رئيس الجمهورية - حفظه الله - وانتدبني المشاركون لإلقاء كلمة الوفود نيابة عنهم، فلم أجدُ بدأً عن تحقيق رغبتهم.

وانتابتني مشاعر عدّة، وخواطر شتى. وقلت لنفسي إن أشرف شيء يقال في هذا اليوم ما فيه إصلاح دنياً ونصرة دين، وإنصاف مظلوم، فذكرت بعد مقدمة ضافية مهنيّاً ومباركاً لليمن كلها تحقيق وحدتها وجمع شملها، ولم شتاتها، وذاقت طعم الأُنس بعد الوحشة، والألفة بعد التنافر، والحمد لله الذي أعاد الحق إلى نصابه، والسيف إلى قرابه، لكن - يا فخامة الرئيس - لن تكتمل الفرحة عندي إلا إذا أعدتُم الاعتبار لعالم اليمن والجزيرة شيخنا وأستاذنا الشيخ / محمد بن سالم البيحاني مؤسس المعهد العلمي الإسلامي بعدن قبل خمسين عاماً، وهو أول وحدوي نادى بالوحدة اليمنية ووحدة اليمن أرضاً وشعباً. فهو القائل قديماً:

شعبُ الجنوب وشعبي كُلُّهُ يَمَنُّ من حضرموت إلى أقصى بني عبسى

وكأنني - يا فخامة الرئيس - أطوي نصف قرن من الزمن فأتمثله وهو ينشد اليوم بين يديك وأنت تحتفل بيوم الوحدة ونحن تحتفل معك فنسمعه يقول:

لا عيداً إلا مثل هذا العيد من حضرموت إلى مشارف ميدي ورد الاعتبار الذي أناشدهم به اليوم هو: بإرجاع المعهد العلمي الذي أسسه إلى طبيعته الأولى وإلى سالف عهده المشرق والمجيد. ووالله لو فعلتم ذلك لجعلت لكم كل مديحي ونشيدي ولجعلت للرحمن طول سجودي.

والحمد لله فقد حلّ الطلب عند الرئيس محل الرضا وأصدر التوجيهات بإعادة المعهد إلى وضعه السابق، وقد كان يومها محافظة لعدن، حيث ألغى النظام الشمولي عبارة: المعهد العلمي الإسلامي، لمؤسسه الشيخ / محمد بن سالم البيهاني.

وهكذا في ليلة غاب قمرها ألغوا تاريخاً ومجداً ولكن هيهات!! ((إن الله لا يصلح عمل المفسدين)).

وبعد إلقاء كلمتي في اللقاء الكبير، قام الحاج / محمد مبارك عذبان وأعلن تبرعه بعشرين مليون ريال لترميم المعهد، ومضت سنوات وما تم من ذلك شيء، وحين أبلغت محافظ عدن في تلك الفترة الكالحة، وكان (صالح السيلي) بالتوجيه بإخلاء المعهد وتسليم المبنى للجهة المختصة قال: "والله يا .شيخ/ ناصر . لو كنت جئتنا أيام الغرام ((يقصد الجنون)) لكان الكلام ثاني، قلت له: قد اكتويت بنار جنونكم ثلاث سنين وأشهر في سجن المنصورة وفتح، فلا تندم، وأضرع إلى الله أن يكفيننا شر عقلائكم، وحنون مجانينكم، وقلت له: إن مؤسس هذا المعهد قال يوماً:

وَأَسْأَلُ اللَّهَ أَلَّا يَسْتَبِدَّ بِنَا مَنْ طَبَعُهُ مِثْلَ طَبَعِ الرَّقْطِ⁽¹⁾ وَالْمَلْسِ⁽²⁾

والله ولي التوفيق،،،

(1) الرَّقْطُ: الحَيَّات

(2) الْمَلْسُ: الثَّعَابِين